

البداية والنهاية

أن أخلق عبادا أجعلهم أربابا من دوني أو آذن لأحد بالطاعة لأحد وهي لا تنبغي إلا لي .
وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون فينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التي
يبتدعون في ديني ويطيعونهم في معصيتي ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي فهم جهلة بما
يعلمون لا ينتفعون بشيء مما علموا من كتابي .
وأما أولاد النبيين فمقهورون ومفتونون يخوضون مع الخائضين يتمنون مثل نصرى آباءهم
والكرامة التي أكرمتم بها ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم بغير صدق منهم ولا تفكر
ولا يذكرون كيف كان صبر آباءهم وكيف كان جهدهم في أمري حين اغتر المغترون وكيف بذلوا
أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عز أمري وظهر ديني فتأنيت هؤلاء القوم لعلمهم يستحيون
مني ويرجعون فتطولت عليهم وصفحت عنهم فأكثرتم ومددت لهم في العمر وأعذرت لهم لعلمهم
يتذكرون وكل ذلك أمطر عليهم السماء وأنبت لهم الأرض وألبسهم العافية وأظهرهم على العدو
ولا يزدادون الا طغيانا وبعدا مني فحتى متى هذا أبى يسخرون أم بي يتحرشون أم اياي
يخادعون أم على يجترئون فاني أقسم بعزتي لأتيحن عليهم فتنة يتحير فيها الحكيم ويضل فيها
رأي ذوي الرأي وحكمة الحكيم ثم لأسطن عليهم جبارا قاسيا عاتبا ألبسه الهيبة وأنزع من
قلبه الرأفة والرحمة وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل الليل المظلم له فيه عساكر مثل قطع
السحاب ومواكب مثل العجاج وكأن حفيف راياته طيران النسور وحمل فرسانه كسرب العقبان
يعيدون العمران خرابا والقرى وحشا ويعثون في الأرض فسادا ويتبرون ما علوا تتبيرا قاسية
قلوبهم لا يكثرثون ولا يرقبون ولا يرحمون ولا يبصرون ولا يسمعون يجولون في الأسواق بأصوات
مرتفعة مثل زئير الأسد تقشعر من هيبتها الجلود وتطيش من سمعها الأحلام بالسنة لا يفقهونها
ووجوه طاهر عليها المنكر لا يعرفونها فوعزتي لأعطلن بيوتهم من كتبي وقدي ولأخلين مجالسهم
من حديثها ودروسها ولأوحش مساجدهم من عمارها وزوارها الذين كانوا يتزينون بعمارتها
لغيري ويتعبدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين ويتفقهون فيها لغير الدين ويتعلمون
فيها لغير العمل لأبدلن ملوكها بالعز الذل وبالأمن الخوف وبالغنى الفقر وبالنعمة الجوع
وبطول العافية والرخاء أنواع البلاء ولباس الديباج والحرير مدارع الوبر والعباء
وبالأرواح الطيبة والأدهان جيف القتل ولباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال ثم
لأعيدن فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة الخراب وبعد البروج المشيدة مساكن
السباع وبعد سهيل الخيل عواء الذئاب وبعد ضوء السراج دخان الحريق وبعد الأنس الوحشة
والقفار ثم لأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال وبفلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد وبألوان

الطيب والأدهان النقع والغبار وبالمشي على الزرابي عبور الأسواق والأنهار والخبب إلى
الليل في بطون الأسواق وبالخدور والستور الحسور عن الوجوه والسوق والأسفار